الفصل الثالث
البارودى بين السياسة والثورة

شاهد البارودى الأحداث التى تمر بوطنه عن قرب حيث كانت مصر فى عصر اسماعيل أبعد ما تكون عن الاستقرار فسياسته أدت إلى ارتباك أحوالها المالية واضطراب الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية، كما عاصر فترة وفود جمال الدين الأفغانى إلى مصر، ونشره لأفكاره الثورية والاصلاحية، مما جعل جذوة الوطنية تتقد فى النفوس، وأعطى دفعة قوية للحركة الوطنية المصرية، وبعث فى نفوس قادتها الأمل فى إمكانية تغيير الأوضاع فى مصر. وقد شدت هذه الأحداث البارودى بقوة، وبدأت تموج فى نفسه روح الثورة بعد أن رأى البلاد تهوى إلى الكارثة.

ويفكر البارودى فى عمل يوقف هذا التيار ولكنه يجد نفسه عاجزا، ثم يبلغ به الشعور الوطنى ذروته فيدعو أهالى مصر إلى الثورة على الأوضاع الفاسدة، كما دعاهم إلى مواجهة الظلم وحمل السلاح للتخلص من ظالميهم فكتب شعرا يقول فيه:

فيا قوم هبوا إنما العمر فرصـــة
وفى الدهـــر طرق جمـــة ومنافع
أصبرا على مس الهوان وأنتـــم
عديد الحصى؟ إنى إلى الله راجع
وكيف تـــرون الذل دار إقـــامة
وذلك فضل الله فى الأرض واسع
أرى رؤوسا قد أينعت لحصادها
فأين – ولا أين – السيوف القواطع

فكونوا حصيدا خامدين أو أفزعوا

إلى الحرب حتى يدفع الضيم دافع

ولكنها دعوة تذهب مع الرياح ويعود صداها يتعثر فى أذيال اليأس! ويتلفت البارودى حوله فلا يجد من يسمع لندائه ولا مجيبا له ، وكأن مواطنيه قد وضعوا أصابعهم فى آذانهم كيلا يسمعوا، فيثور البارودى عليهم ويقول:

أهبت فعاد الصوت لم يقض حاجة

إلى ، ولبانى الصدى وهو طائع

فلـــم أدر أن الله صـــور قبـــــلكم

تماثيـــل لم يخـــلق لهن مسامع

وهكذا كان صوت البارودى أسبق الأصوات فى الدعوة إلى الثورة المسلحة على الفساد والظلم القائم فى البلاد واستمر الحال على ذلك حتى تم عزل الخديوى اسماعيل وتولية ابنه توفيق حكم مصر عام ١٨٧٩ وأحس الوطنيون بالأمل فى الخلاص ولكن توفيق سرعان ما نقض عهوده تجاه ما وعد به من اصلاح مما جعل البارودى ينضم إلى العرابيين بعد أن كاشفوه بأمرهم وأقسم لهم على الولاء والوفاء لحركتهم، وقدم لهم كل المساعدات الممكنة وأغلب الظن أن البارودى كان همزة الوصل فى اللقاء بين زعماء حركة الضباط وأعيان البلاد وكبرائها والعلماء، ذلك اللقاء الذى اتفق فيه على تكوين جمعية سرية أطلقت على نفسها "الحزب الوطنى المصرى"، واتخذ الحزب مقره فى حلوان بعيدا عن العيون وجواسيس الخديوى ، وتغلغلت حركة الضباط فى الجيش ، وفى الوزارة ، وفى

القصر، وفى المعارضة، وأصبحت فى موقف يخول لها حرية العمل والقدرة على المبادرة ، واختيار الوقت المناسب للمعركة الفاصلة مع الخديوى وأعوانه.

ولما كانت الفروق الطبقية والميل إلى التعصب الجنسى واضحين فى صفوف الجيش نظرا لتعصب عثمان رفقى وزير الحربية لأبناء جلدته من الشراكسة واستخفافه بالعنصر الوطنى، فكانت الوظائف الهامة والرتب والنياشين تعطى للضباط الشراكسة بينما يحرم منها الضباط المصريون، كما أن عثمان رفقى أخرج معظم الضباط المصريين من الجيش إلى المعاش قبل السن القانونى، كل هذه المظالم دفعت الضباط المصريين إلى التذمر وبدأت الثورة تجتاح قلوبهم فقرروا العمل علانية لوقف الظلم الذى لحق بهم ووافقهم البارودى على ذلك وانضم إلى مطالبهم وبايع مع غيره من الضباط أحمد عرابى لرئاسة الحركة ، واقسموا له يمين الولاء على السيف والمصحف، وبقى البارودى – وزير الأوقاف وقت ذلك– مستشارهم ولسان حالهم فى مجلس الوزراء يبلغهم بما يدور فيه من مواقف تجاههم وينصحهم بما يراه صالحا لهم ولحركتهم ، وفى صبيحة ١٧ يناير ١٨٨١ تقدم أحمد عرابى وعبد العال حلمى وعلى فهمى بمذكرة إلى رياض باشا رئيس الوزراء يطالبون فيها بعزل وزير الحربية عثمان رفقى، وتعديل القوانين العسكرية بحيث يكون وزير الحربية مصريا ووقف الظلم والمحسوبية، وفى ٣١ يناير ١٨٨١ اجتمع مجلس الوزراء فى سراى عابدين برئاسة الخديوي، وبحث فى أمر هذه المذكرة ، واستقر الرأى على ضرورة محاكمة الضباط الثلاثة أمام مجلس عسكرى، وكان الأمر موضع

جدل طويل فى المجلس حيث يقول محمود باشا سامى البارودى أنه حصلت مناقشة طويلة فى هذا الصدد وان رياض باشا عارض عثمان رفقى قائلا انه يخشى حدوث تذمر بين الضباط، وقد وعده عثمان رفقى بالتكفل فى ضبط الأمور، وبعد أن استقر الرأى على محاكمة الضباط الثلاثة أصدر وزير الحربية أمرا بالقبض عليهم وسجنهم وتاليف مجلس عسكرى لمحاكمتهم، وحتى لا تخرج الأمور عن نطاق السيطرة اتبع عثمان رفقى طريقة ملتوية إذ ارسل إلى الضباط الثلاثة تذاكر يدعوهم فيها إلى ديوان الوزارة صباح أول فبراير للمداولة فى ترتيب الاحتفال بزفاف الأميرة جميلة هانم شقيقة الخديوي، ولكنهم أحسوا بالمكيدة عن طريق محمود سامى البارودى الذى أبلغهم بحقيقة الأمر، وحين دعاهم عثمان رفقى صباح أول فبراير إلى وزارة الحربية بقصر النيل أعدوا الخطة المضادة وما أن اعتقلوا حتى سارع آلاى الحرس بقيادة الاميرالاى محمد عبيد بالإفراج عنهم، مما أزعج الخديوي وخلال ذلك أشار عليه محمود سامى البارودى بإجابة طلبات الجند وحاول تبرير مظاهرتهم العسكرية، فقال له: " إنى أراهم مطيعين بدليل هتافهم باسم الخديوي، ولو أجيبت طلباتهم لانحسمت المسألة بسلام "، واستسلم توفيق للأمر وانتدب البارودى لمفاوضة الزعماء. ومن الطبيعى ان تسفر المفاوضات – والبارودى على رأسها – عن التسليم بمطالب الجيش كاملة فأقيل عثمان رفقى، وألغى قانون العسكرية المجحف، وأسندت وزارة الجهادية إلى محمود سامى البارودى، وكان النصر مؤزرا، واستردت القوى الوطنية بالجيش شجاعتها

فأيدته بروح منها، ووقفت خلفه تناصره، وأخذت تتطلع إلى عمل أكبر.. وهو القيام بثورة تطيح بالفساد كله.

لقد كان موقف البارودى من حركة فبراير ودفاعه عن زعماء الحركة ومطالب الجيش فى مجلس الوزراء يثيران الشك فى نفس رياض، فبث العيون والأرصاد من حوله حتى تأكد من العلاقة السرية بين البارودى وزعماء الحركة "ومن نقله قرارات مجلس النظار إليهم" ، فدس له عند الخديوي ، وظل به حتى " اعتقد توفيق قلبا وقالبا ان محمود سامى متحد اتحادا كليا مع زعماء الحركة"، وأن بقاءه فى نظارة الجهادية مع ميله إلى عرابى سبب تطاول الضباط على السلطة العليا فى الدولة، فناصبه هو ورياض العداء، وتربصا به الشر، حتى اضطر البارودى إلى الاستقالة فى ١٣ أغسطس ١٨٨١، واعتزال الحياة السياسية والعيش بعيدا عن جو القلق والاضطراب .

وكان البارودى قد اتفق مع زعماء الضباط على أنه إذا لم يستطع دفع الشر عنهم قدم استقالته، وعليهم أن يعدوا هذه الاستقالة إنذارا لهم يتوقعون بعده مالا تحمد عقباه وكان البارودى بالاسكندرية حين قدم استقالته ، وبعد أن عاد إلى القاهرة أرسل إليه رياض مع خطاب قبول الاستقالة يبلغه أن يترك القاهرة ويبتعد عن العرابيين، ونتيجة لذلك هرع شيطان الشعر إلى نفس البارودى فقام بهجاء رياض باشا بقول:

هذا الذى تكره الأبصار طلعته

فحظهـــا منه إيـــذاء وإيـــلام

فى وجهه سمـــة للغدر بينـــة

وبين جنبيـــه أحقاد وأوغـــام [1]

---

(١) بمعنى الحقد الثابت فى الصدر

جاءت به عجز ليست بطاهرة

لها بمدرجـــة الفحشاء أرلام [1]

مستيقظ للمخازى غيـــر أن له

طرفا عن العرض والأوتار نوام

وكيف يصلح أمر الناس فى بلد

حكـــامه لبنـــــات اللهـــو خدام

ولكى يسيطر الخديوي على أمور الجيش عين صهره "داود يكن" مكان البارودى وطلب منه الحد من نشاط الضباط الوطنيين داخل صفوف الجيش وملاحقتهم بالجواسيس وتشتيت شملهم ، ونظرا لخطورة الموقف احتشد عرابى بقواته فى ميدان عابدين بعد ظهر الجمعة ٩ سبتمبر ١٨٨١ وقدم مطالبه إلى الخديوي بصفته ممثلا للأمة المصرية ، وهى إقالة وزارة رياض، وتشكيل مجلس نيابى ، وزيادة عدد الجيش والتصديق على قوانينه. وقد أرغم الخديوي على قبول هذه المطالب، بعد ان رفض عرابى ان تترك قواته ساحة عابدين إلا بعد أن تجاب مطالبه، ونتيجة لذلك شكلت وزارة جديدة برئاسة شريف باشا فى ١٤ سبتمبر ١٨٨١ وتم تعيين البارودى وزيرا للحربية فيها.

ونتيجة لاعتراض وزارة شريف باشا على السماح للنواب بالإشراف على الميزانية، وإصرار البارودى على ضرورة مناقشتها والاطلاع عليها، وعزل شريف باشا إذا لم يوافق على ذلك، تطورت الأمور إلى درجة التحدى مما أدى على استقالة الوزارة، ومطالبة النواب بتعيين البارودى

---

(١) جمع زلم بمعنى النصيب.

خلفا لشريف، وقد وافق الخديوى على ذلك، وكلف البارودى بتشكيل الوزارة كما أحال إليه وزارة الداخلية، وأحال إلى عرابى وزارة الحربية مما جعل زمام الأمور فى يد العرابيين كاملة.

وقد استهلت وزارة البارودى عهدها بأن جعلت من حق مجلس النواب النظر فى الميزانية والإشراف على أحوال البلاد المالية مع تعهدها باحترام الارتباطات الدولية والالتزامات المالية المرتبطة بالديون، كما كونت الحكومة مجلس شورى لرفع الاستبداد الإدارى عن الشعب، والمساعدة فى تجهيز القوانين واللوائح الإدارية. فصدر القانون بتعديل لائحة مجلس النواب، وتضمنت نصا يقول ترسل الميزانية إلى مجلس النواب فينظرها ويبحث فيها ويعين لها لجنة من أعضائه مساوية بالعدد والرأى لأعضاء مجلس النظار ورئيسه لينظروا جميعا فى الميزانية ويقرروا بالاتفاق او بالأكثرية.

وهكذا تم حسم الصراع حول أحقية النواب فى مناقشة الميزانية. ونتيجة لذلك أجمع أعضاء مجلس النواب على أن البارودى هو رجل الساعة الذى يستطيع بثوريته أن يتجاوب مع آمال الأمة، ويكفل لها الحياة الديمقراطية السليمة، ويحافظ على كرامتها الوطنية باستقلالها الكامل. ومن أجل ذلك أطلق على وزارة البارودى بحق "الوزارة الوطنية" وأطلق عليها أيضا " وزارة الثورة"، فقد كانت تضم ثلاثة من زعمائها: محمود سامى البارودى للرئاسة والداخلية، وأحمد عرابى للحربية والبحرية، ومحمود فهمى للأشغال، واعتبر تشكيل هذه الوزارة انتصارا للجناح العسكرى فى الحركة

الوطنية فى مواجهة الخديوي والأتراك والجراكسة والمراقبة الثنائية، وبرزت شهرة عرابى على اعتبار أن السلطة الفعلية كلها أصبحت فى يده.

وافتتحت وزارة البارودى أعمالها بإعداد الدستور، وجعلته يوائم آمال الأمة، ويحقق إرادتها ويحفظ كرامتها كدولة مستقلة ، لمجلس نوابها حق نظر ميزانيتها، وبعد موافقة الوزارة على مواد الدستور حمل البارودى الدستور ، إلى الخديوي وكأنه يحمل آمال الأمة وتوقيعاتها عليها بالموافقة، فلم يسعه إلا أن يضع خاتمه بالتصديق، وما كان ليستطيع – ولو اراد – أن يفعل غير ذلك.

وكان يوم الأربعاء ٨ فبراير قمة المجد الذى بلغه البارودى فى حياته السياسية كلها، وذروة النصر الذى وصلت إليه الأمة بثورتها، ومجلس نوابها، ووحدة القوى الوطنية فيها، فقد حضر "محمود سامى البارودى" رئيس الوزراء إلى مجلس النواب ومعه "اللائحة الأساسية" المحققة لإرادة الأمة مصدقا عليها من الخديو "وقوبل البارودى فى المجلس بالتعظيم والإكبار، وسر النواب بهذا الانجاز فشكروا الوزارة الجديدة على ذلك، ثم وقف محمود سامى خطيبا فى المجلس يقدم الدستور لنوابه بخطاب سياسى جامع يكشف عن منابع أصيلة لوطنية البارودى المحبة لمصلحة الوطن واستقراره وسط أفراح الوطنيين وسعادتهم.

وانتهت دورة مجلس النواب الأولى فى ٢٦ مارس ١٨٨٢، وسارت الحركة الوطنية يحدوها الرغبة فى السير بالبلاد إلى بر الأمان، ولكن الخديوي الذى أبعدته الوزارة عن الحكم المطلق، ومنعت الأجانب عن التدخل فى شئون البلاد قد ضاق بالحركة الوطنية وشاركه فى هذا الشعور

قنصل بريطانيا العام خشية من نجاح الوزارة ومجلس النواب فى استقرار الأمور والتغلب على المشاكل واحتمال ضياع الفرصة على انجلترا فى احتلال مصر فاستغلت بريطانيا وفرنسا الفرصة لتوسيع دائرة الخلاف بين وزارة البارودى والخديوي، فنصحت الخديوي بعدم التصديق على الحكم الخاص بمؤامرة الشراكسة ضد العرابيين والتى صدر الحكم فيها فى مايو ١٨٨٢ كما تقدمت انجلترا وفرنسا بمذكرة مشتركة فى ١٨٨٢/٥/٢٥ تطلبان فيها اسقاط وزارة البارودى، وإبعاد عرابى عن مصر، وتحديد إقامة على فهمى وعبد العال حلمى فى الريف، وقد رفضت وزارة البارودى هذه المذكرة، كما رفضتها الأمة كلها، وأرسلت التلغرافات لتأييد الوزارة الوطنية، ومع ذلك فقد وافق عليها الخديوي وقد أوضح عرابى ذلك فى مذكراته بقوله: "لما رأت انجلترا نجاح الحزب الوطنى فى أعماله وعلمت بتأليف وزارة وطنية حرة، وأن تلك الوزارة صادقت على قانون مجلس النواب ولائحة انتخاب النواب وصدر الأمر الخديوى بالتصديق عليهما كبر عليها هذا الأمر واستمالت إليها دولة فرنسا للاستعانة بها على إطفاء نور الحرية والعدالة" وقد طلب الخديوي من البارودى قبولها منعا لحدوث ارتباكات مالية، وسفك دماء ولكنه اعترض على ذلك وقدم استقالته فى ٢٦ مايو ١٨٨٢ احتجاجا على التدخل الأجنبى وقبول الخديوي له ، فقبلها الخديو بناء على نصيحة انجلترا وفرنسا، مما استثار غضب العرابيين، وجعلهم يفكرون فى عزل الخديوى توفيق، وتكوين مجلس وصاية برأسه البارودى وعرابى ليتولى الحكم باسم الأمير عباس الابن القاصر للخديوي توفيق.

كما استقر الرأى على اجتماع مجلس النواب رغم اعتراض الخديوي على ذلك لبحث أمر قبول اللائحة المشتركة ، وتمت مناقشة مسألة خلع الخديو، وطلب عرابى من الحاضرين أن من يوافق على هذا الرأى يقوم بالوقوف فقام الضباط واقفين، واعترض "محمد سلطان" رئيس مجلس النواب وبعض الأعضاء المدنيين على ذلك وتوجهوا إلى سراى الاسماعيلية مطالبين الخديوي بإبقاء عرابى على نظارة الجهادية حتى لا يحدث قلق فى البلاد، ووافق الخديوى على طلبهم حفاظا على انتظام أحوال الجيش وحفظ الأمن فى البلاد، وبعد عودة عرابى إلى نظارة الجهادية أصدر منشورا إلى قناصل الدول الأجنبية تكفل فيه "بتأييد الأمن والراحة لجميع سكان القطر المصرى وطنيين وأجانب مسلمين وغير مسلمين"، ومع ذلك فقد قام بعض العرابيين بالذهاب إلى منزل عرابى وتحرير محاضر بعزل الخديو، وتختيم بعض الأهالى عليها.

وخلال ذلك أخذت العناصر الوطنية تستعد للمواجهة فدعا البارودى زعماء الثورة وكبار الضباط إلى التحالف واستمرار الوفاء للثورة، وتلا عليهم الشيخ محمد عبده قسم الوفاء للثورة ، وتجديد الولاء لمبادئها على المصحف والسيف، وهم يرددون بعده: " والله العظيم، والله العظيم، والله العظيم قاهر السموات والأرض المتسلط على القوى والقدر، وحق ما فى كتاب الله تعالى، إننى وأنا (فلان) لا أخون وطنى، ولا أخون نفسى، ولا أغش إخوانى، ولا أحدا من أهل بلادى ، وأحافظ على عرضى وعلى دينى، وعلى عرض أهل بلادى، ولا أدع أحدا أيا كان يتعدى على أحد من أهل بلادى ما دمت قادرا على منعه، وإننى أحافظ على النظام وعلى القانون العسكرى بكل ما يمكننى، وبقدر استطاعتى، وإذا حنثت بيمينى هذا

أكون مستحقا لقطع الرقبة وشق الصدر، وأكون محروما من مزايا الإنسانية والآداب".

لقد كان قبول الخديوي اللائحة المشتركة وموافقته على تدخل انجلترا وفرنسا فى شئون البلاد بمثابة الشرارة التى فجرت بركان الثورة المحتدمة فى قلب البارودى على الخديوي توفيق، وأعلنها عليه حربا شعواء، انتقاما لكرامة هذا الوطن الذى عرضته الخيانة للخطر. فسيقسم أنه لن يهدأ نفسا حتى يخلص البلاد منه ولو بإراقة الدماء، وبتقديم حياته قربانا لوطنه. ويدق ما ردد الشعر طبوله ، فتزيد رناتها ثورة البارودى النفسية فينشد:

تا الله أهــدأ أو تقــوم قيــامة

فيهــا الدمــاء على الدماء تراق

أنا لا أقر على القبيــح مهــابة

إن القــرار على القبيــح نفــاق

قلبى على ثقــة ونفسى حــرة

تأبى الدنى، وصــارمــى ذلاق

فعلام يخشى المرء فرقة روحه؟

أو ليــس عاقبة الحياة فراق؟ (١)

ثم يصور البارودى عملاء الرجعية الجدد بقيادة سلطان باشا، ويرد عليهم وقد شنوا حملة دعائية عليه تلومه على موقفه من الخديوي صاحب السلطة الشرعية فى البلاد فيقول:

عابــوا على حمــيتى ونكايتى

والنــار ليس يعيبها الإحراق

---

(١) أنظر ديوان البارودى.

فاعرفهم ، واحذر تشابه أمرهم

لا تستوى الأغـــلال والأطواق

شروا الضلالة الهدى ، واغترهم

لين الحيـــاة، وماؤها الرقـــراق

ثم يتحول إلى الخديوي رأس الخيانة وسليل الرجعية فيلطخه بالعار ويصمه بالخزى، ويضع صورته على معبر التاريخ فى إطار من الذلة والهوان، فيقول فيه:

عدادك فى سلك البرية خزية

ودعواك حق الملك أدهى وأعظم

وخلال ذلك تقف جماهير الشعب بجانب الثوار، تتجه وجوههم إلى السماء، ورافعين أكفهم كلما ذكر عرابى "الله ينصرك يا عرابى وتصدر الفتاوى من بعض مشايخ الأزهر بخيانة الخديوى وخروجه عن الشرع وتطالب بعزله ، وينفعل البارودى بكل ذلك وبالمشاكل التى يتعرض لها وطنه ، وتخرج منه أشعار تعبر عن ذلك نذكر منها:

كنا نود انقـــلابا نستـــريح به

حتـــى إذا تم ســـاءتنـــا مصايره

فالقلب مضطرب فيما يحاوله

والعقـــل مختبـــل ممـــا يحاذره

إذ دام هذا أضاع الرشد كافله

فيمـــا أرى، وأطاع الغى زاجره

تنكرت مصر بعد العرف، واضطربت

قواعـــد المـــلك حتى ريع طائره

فاهمل الأرض جرا الظلم حارثها

واسترجع المال خوف العدم تاجره

واستحكم الهول ، حتى ما يبيت فتى

فى جـــوشن الليل إلا وهو ساهره

وخلال تلك الفترة كان زعماء الثورة يجتمعون فى منزل البارودى يدرسون الموقف السياسى وأفضل نظم الحكم الملائمة لحكم مصر بعد عزل توفيق ، وكانت الجمهورية الحيادية هى نوع الحكومة المفضل عند البارودى فقد كان يسعى لتحقيقها فى حذر، ففى احدى الجلسات أخذ محمود سامى يتحدث عن فوائد الحكومة الجمهورية لبلاد مثل مصر، ومما قاله: " لقد كنا نرمى منذ بداية حركتنا إلى قلب مصر إلى جمهورية مثل سويسرا، وعندئذ كانت تنضم إلينا سورية ويليها الحجاز. ولكننا وجدنا العلماء والمشايخ يرفضون هذه الفكرة لأنهم كانوا متأخرين عن زمنهم، لكننا مع ذلك سنجتهد فى جعل مصر جمهورية قبل أن نموت، وقد هلل عبد الله النديم خطيب الثورة العرابية لهذه الفكرة وأخذ يبثها فى أذهان الجيل الجديد.

لقد كانت دعوة البارودى إلى خلع الخديوي، وقلب نظام الحكم إلى جمهورية منفصلة عن الدولة العثمانية، وتكون حيادية كسويسرا، تمثل المرحلة الأولى للوحدة العربية بانضمام سورية والحجاز إليها، كما طرح أحد العرابيين على عرابى فكرة خلع الخديوي توفيق وتولية حليم باشا ابن محمد على مكانه، ولكن عرابى صاح غاضبا إننا يجب ان نتخلص من

أسرة محمد على كلها. وخلال هذه الاجتماعات كانت تناقش اتجاهات الدول الأجنبية، والتدابير التى يجب أن تتخذها مصر لمواجهة الأطماع الأوروبية، ومدى استعداد الجيش والبلاد فى مواجهة احتمالات التدخل المسلح، وقد رأى البارودى ببصيرة القائد الحربى أن قناة السويس هى اضعف نقط الدفاع فى السواحل المصرية، ونصح بأن تتخذ كافة الإجراءات لردمها فى ساعات قلائل عندما يبدو دلائل الاعتداء عليها، ولكن عرابى استبعد فكرة الاعتداء عن طريق القناة تحت تأثير الوهم الذى خادعه به المهندس "دلسبس" من حيدتها واستعداد الدول وخاصة فرنسا لمنع أى اعتداء يأتى من ناحيتها.

وبينما كانت المسألة المصرية تعرض فى مؤتمر الآستانة بتركيا الذى انتهى إلى عقد اتفاق أطلق عليه "ميثاق النزاهة"، والذى تعهدت الحكومات بمقتضاه بأنها فى كل اتفاق يحصل بشأن تسوية المسألة المصرية لا تبحث عن احتلال أى جزء من الأراضى المصرية ولا على امتياز خاص بها قام الأسطول البريطانى بضرب الاسكندرية فى ١١ يوليو ١٨٨٢ وانحاز الخديوي إلى الأعداء ووقف بجانبهم وهبت الأمة المصرية كلها للدفاع عن الوطن. ولما وصل خبر الاعتداء على الإسكندرية إلى البارودى ارتدى ملابس الميدان، وأخذ عتاده الحربى ، وأسرع إلى الإسكندرية ليضع نفسه فى خدمة الوطن، ويشارك فى المعركة، واجتمع البارودى بعرابى ومجلس القيادة الحربية[1] يبحثون تطورات الموقف من الناحيتين: السياسية والحربية ويعملون على تنظيم الخطوط الخلفية وتوفير الامدادات، وقد

(١) كان مكونا من كبار الضباط أمثال محمود فهمى المهندس أركان حـرب القيـادة المصرية وطلبه عصمت، وسليمان سامى داود وغيرهم من قادة الميدان.

صمدت القوات المصرية فى مراكزها بعض الوقت وبذلت جهدها أمام قذائف الأسطول الانجليزى للطوابى، وتطوع كثير من الرجال والنساء فى خدمة المجاهدين ومساعدتهم ونتيجة لتطورات الأحداث واتضاح موقف الخديو المؤيد للانجليز دعا عرابى إلى عقد جمعية عمومية من كافة طوائف الشعب ليعرض عليها الأمر، واتخذت الجمعية قرارها بالاستمرار فى قتال الانجليز، كما تم تشكيل مجلس عرفى من كبار الضباط والموظفين لاتخاذ التدابير اللازمة للحرب، وانضم البارودى إلى هذا المجلس وشارك فى جلساته.

ونتيجة لضرب مدافع الأسطول الانجليزى للاسكندرية وتدمير مواقعها الدفاعية توجه عرابى بجنوده إلى كفر الدوار وأقام استحكاماته هناك فى المكان المعروف باسم الميدان الغربى حيث لم تعد الإسكندرية تصلح كمنطقة دفاعية بعد تحطيم حصونها وحرقها مما أعاق تقدم القوات الإنجليزية فى هذه المنطقة حيث قدم المصريون سجلا مجيدا لمقاومة الغزاة. وخلال استعدادات عرابى للدفاع عن البلاد أصدر الخديوي أمرا بوقف الاستعدادات الحربية، كما طالب عرابى بالحضور إليه فى قصر رأس التين، ولكن عرابى لم يستجب لتعليمات الخديوي واستمر فى استعداداته مما جعل الخديو يعلن عصيانه وعزله من منصبه.

وكان نص قرار العزل كما يلى: " إن ذهابكم إلى كفر الدوار مستصحبا العساكر وإخلاء ثغر اسكندرية من غير أن يصدر لكم أمر بذلك، وتوقيف حركة السكة الحديد، وقطع جميع المخابرات التلغرافية عنا، ومنع ورود البوستة إلينا ومنع حضور المهاجرين إلى وطنهم بالاسكندرية، واستمراركم فى التجهيزات الحربية ، وارتكابكم عدم الحضور بطرفنا بعد

صدور أمرنا بطلبكم ، كل ذلك يوجب عزلكم فقد عزلناكم من نظارة الجهادية والبحرية، وأصدرنا أمرنا هذا لكم بما ذكر ليكون معلوما" .

ونتيجة لذلك عقد عرابى اجتماعا تم فيه تداول الموقف الحربى وتليت فتوى شرعية مؤداها أن الخديوي بانحيازه إلى العدو المحارب لبلاده يعتبر خارجا عن الدين كما استمر عرابى فى استعداداته، وسافر إليه البارودى مع بعض كبار الضباط إلى كفر الدوار، وعقدوا مجلسا عسكريا مع عرابى، استعرضوا فيه الخطط العسكرية وقرروا تحصين الخط الشرقى ودمياط ، كما رأى البارودى وعلى فهمى رئيس هيئة أركان الحرب المصرية ، ضرورة سد قناة السويس لمنع الأسطول الانجليزى، ولكن عرابى لم يستمع لنصائحهم مؤمنا بوعود ديليسبس التى كانت تنحصر فى ضمان حياد المرور فى القنال للجميع ، فكان ذلك من الأسباب التى غيرت مجرى الحرب حيث اخترق الانجليز حياد القناة ، وانتقلت المعركة إلى الجبهة الشرقية بالتل الكبير فى أوائل أغسطس ١٨٨٢ وأمام هذا التحول المفاجئ فى جبهات القتال أعاد عرابى حساباته وأخذ العرابيون فى إعداد خطوط دفاعية جديدة، وخلال ذلك عرف البارودى أن كفة الحرب قد تحولت إلى مصلحة الأعداء، وأن الوطن قد بات فى خطر، وضاقت به نفسه وهو يرى الصواب وينصح فلا يسمع أحد لنصحه ، وتظل يده مغلولة، فالأمر بيد غيره لا بيده، ويموج صدره بالحسرة فيهتف:

نصحت فكذبتم فلما أتى الردى

عمدتم لتصديقى، وقــد قضى الأمر

فلم يبق فى أيديكم غير حسرة

ولم يبق عندى غير ما عافه الصدر

فجاء الذى كنتم تخافون شره

وزال الذى لم يبق من بعده شعر[1]

ولما تحرجت الأحوال فى الميدان الشرقى دعاه عرابى إلى قيادة موقع الصالحية غربى الاسماعيلية فأطاع الأمر الذى صدر إليه ، وهو يعلم ان الدفاع أصبح بعد احتلال القناة أمرا ميئوسا منه من الوجهة العملية، وأن المعركة غير متكافئة ، فقد كانت جيوش الانجليز ضعف عدد قوات الجيش المصرى، هذا بالإضافة إلى تفوقها بالتدريب والمعدات الحربية الحديثة، ومع ذلك لبى البارودى نداء وطنه حين دعاه كما يقول:

دعونى إلى الجلى فقمت مبادرا

وإنى إلى أمثال تلك لسابق[1]

وخرج البارودى إلى الحرب قائدا لفرقة من ١٢ ألف جندى من الأسلحة الثلاثة: المشاة، والسوارى ، والمدفعية ، وأخذ منذ وصوله إلى مواقعه "يواصل الليل بالنهار فى عمل الاستحكامات الحربية ومد خط دفاع طوله ٤ آلاف متر، كما قام بتحصين مراكز الطوابى بحيث تستعصى على الأعداء، وكان موقع الصالحية هاما لحماية مؤخرة الجيش المصرى، وظل جنوده يقاومون العدو بكل بسالة، ولكن جبهة الخيانة التابعة للخديوى كانت تحيط العدو بمواقع الجيش المصرى واستعداداته ، فتابع الجيش الانجليزى تقدمه ونجح فى الاستيلاء على المواقع الأمامية للجيش المصرى، كما نجح فى أسر "محمود باشا فهمى" مما أدى إلى تصدع الجبهة الشرقية ولما أقتضى الأمر تعطيل تقدم القوات البريطانية عهد عرابى إلى البارودى

(١) للمزيد أنظر: ديوان البارودى.

المشاركة فى واقعة القصاصين فقام بتنفيذ الأمر، وبعد وصوله إلى هنـــاك حاولت القــوات المصرية الإحـــاطة بالعدو، فاجتمع مجلس قيـــادة الحرب

---

(١) للمزيد أنظر: ديوان البارودى.

وحضره محمود سامى، وتقرر الهجوم على مركز التجمع الانجليزى بالقصاصين، ورسمت الخطة ، وعرف كل قائد مهمته فى العملية الحربية" وكان على محمود سامى قومندان مركز الصالحية أن يزحف بجيشه ليلا بحيث يصل إلى الخط المعين للقتال عند مطلع الفجر، ويقف على يسار جيش مركز رأس الوادى ، ويحيط بميمنة العدو ، وعلى القوة التى على يمين الترعة أن تحيط بميسرته ، ويقتحم الأعراب الترعة من خلفه، ويقطعوا على العدو خط الرجعة. وعمل المخطط بهذا الترتيب على طريق محمود فهمى المهندس رئيس أركان حرب الجيش، وأعطى لكل أمير من القواد نسخة يعمل بموجبها، ويمضى عرابى فيصف المعركة فى مذكراته فيقول: " وفى الثلث الأخير من مساء ٩ سبتمبر قام الجيش على هذا الترتيب ، فلما وصل قريبا من العدو أخذ كل محله على خط النار، ولكن العدو كان عالما بما استقر عليه الرأى ، بعد أن أطلعهم عليه الأميرالاى على يوسف خنفس قائد الاستطلاع الذى كان على صلة بالخديوى والإنجليز فاستعد العدو للمعركة، وبادر بإطلاق النار، واشتبك الجيشان، واستبسل المصريون فى القتال، وتوالى التقدم والتقهقر بين الجيشين ، وظهرت خيوط الصباح ورحى المعركة دائرة. وتوقع القادة المصريون هجوم جيش "الصالحية" بقيادة محمود سامى على ميمنة الأعداء ليغير من اتجاه المعركة، ولكنهم أصيبوا بخيبة أمل، حيث لم يأت محمود سامى

بجيشه، وتأخر عن موعده، فقد قابله في الليل الأعراب المرتشون، وأضلوه وجيشه فى الصحراء ! وحين انبلج الصبح ، اهتدى البارودى إلى الطريق وسارع إلى المعركة، ولكن العدو كان له بالمرصاد، ولم يمكنه من تنفيذ خطته.

وحاول البارودى أن يبث الشجاعة فى القلوب التى أذعجتها المفاجأة ، ويعيد تشكيل رجاله ، ولكن الهزيمة كانت قد ذهبت بالنفوس، وأطاحت بالعقول " وبقى البارودى مع قلة من الفرسان، وصمدوا للمدافع والنيران.. وظل مع الأعداء فى قتال حتى لم يبق من حوله رجال!!" وإلى هذه يشير البارودى من قصيدة طويلة:

فلما استمر الجد ساقوا حمولهم

إلى حيث لم يبــلغه حــاد وسائق[١]

هم عرضونى للقنا ثم اعرضوا

سراعا، ولم يطرق من الشر طارق

فكم آبق تلقــاه من غيــر طارد

وكــم واقف تلقاه والعقــــل آبق[٢]

فلا رحم الله أمرءا بــاع دينــه

بدنيــا سواه وهو للحق رامــــــق

وهكذا كانت هزيمة الجيش المصرى فى معركة القصاصين بداية النهاية، حيث انفتح الطريق أمام القوات الانجليزية وحدثت معركة التل الكبير التى كانت سلسلة من المآسى قوامها الخيانة حيث كان بالاسكندرية مكتب يسمى " قسم المخابرات العسكرية" مهمته تنظيم شبكة الجاسوسية فى

---

(١) كناية عن التخاذل والفرار.
(٢) بمعنى هارب.

البلاد، وكان على رأس هؤلاء " محمد سلطان" رئيس مجلس النواب كما أن معارك التل الكبير كانت غير متكافئة ، وقد ساعد على هزيمة عرابى عدة عوامل منها نجاح الخديوى فى ضم البدو إلى الانجليز بعد رشوتهم ، وخيانة بعض الضباط الذين انضموا إلى الخديوى، وأبلغوه بخطط العرابيين ومواقعهم.

وبعد هزيمة التل الكبير أسرع البارودى إلى القاهرة لاتخاذ العدة للدفاع ومنع الانجليز من دخول العاصمة بمد خطوط الاستحكامات على حدودها فتوجه عرابى إلى العباسية لإجراء ترتيب النقط العسكرية ووضع التصميمات لإنشاء خط دفاعى، ولكنه وجد شبح الهزيمة باديا على الضباط والجنود، وحاول البارودى ان يقنع عرابى بترك القاهرة والالتجاء بالجيش إلى الصعيد، فيستولى على جميع المراكب، وتشحن بالذخيرة والتعيينات، وتؤخذ إلى الصعيد مع الجيش، وفى الصعيد يمكن تنظيم الجيش من جديد، وتعبئة القوى الإسلامية من ليبيا والسودان، ثم الهجوم على المعتدى وطرده من البلاد، وإذا ما تغلب العدو مرة ثانية أمكن نقل الجبهة إلى السودان. ويقول عرابى فى مذكراته ردا على مقترحات البارودى: "وحيث أنى رأيت عدم موافقة رأيه لما تحققته من الخراب الذى يحيق بمديريتى القليوبية والشرقية ودمار عاصمة البلاد وسفك دماء الأبرياء على غير جدوى، فضلا عما رأيته من تحول الأفكار وضعف القلوب، واختلال النظام بالجيش وافقت المجلس على التسليم".

وأيقن البارودى ان دوى الهزيمة قد سد الآذان ، وأصاب التفكير بالشلل. فتمثلت له النهاية المزرية فى الاستسلام الذليل للأعداء!! وبعد

قرار التسليم لم يقبل أن يسلم نفسه وسيفه طواعية لأعداء الوطن ، وقال: "إنى ذاهب إلى منزلى فإذا أرادونى فانهم يعرفون أين يجدوننى".

وسلمت القاهرة فى ١٥ سبتمبر ١٨٨٢، ودخلها القائد الانجليزى دون مقاومة تذكر. وهكذا انتكست أعلام الثورة العرابية التى قامت من أجل الدفاع عن شرف البلاد وكرامتها وصد الظلم الداخلى والتدخل الخارجى وابتلعت السجون رجالها وأحس الشعب المصرى بمرارة الهزيمة، ولكنه سرعان ما التقط أنفاسه فانتقلت الشعلة من جيل الثورة العرابية إلى الجيل الذى حمل الراية بعدها بزعامة مصطفى كامل.